صناعات دمشق القديمة (١)

تمهيد — ما هي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القيانة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — البناء — النسيفساء — الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب — نقش البيوت والجدران — النسج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخر — الختام .

تمهيد

بزراعة وصناعة وتجارة تجد البلاد تقدماً وفلاحا
ان كان عمران فشيد صرحها وخذ العلوم لنيلها مفتاحا

لاخفاء ان اسباب المعايش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد الامارة وكان ابن خلدون الملقب (سبنسر العرب) بمباحثه الفلسفية والعمرانية والتاريخية في مقدمة الذين حضوا على اتقان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن البلاد مما لامحل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآن لما كان لها من الشأن العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملأت خزائن متاحفها بذخائرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انتابنا من النكبات والغزوات

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

والفواجع الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي و بقي الآخر منحطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشتغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينهما . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لاتحتاج اليهما . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع اليدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة (Industria) اللاتينية ومعناها (العمل مطلقاً) ثم خصصت ومنها اخذت اسماؤها في لغاتهم .

فالصناعة والعلم متلازمان لاينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسمان منها ماهي عامة الفوائد كالفلاحة والبناء والخياطة والحياكة والتجارة . ومنها ما هي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ما هي ممتهنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة و بدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد تقي نقيصة اذا صح التقوى وان حاك او حجم

الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ابيس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدها من مواهب الآلهة . ولاسيما

اليونانيون فانهم عدوها موهبة من اثينة او ميرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بديعة وكذلك حكماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشترعين دستوراً لامتيها بشأن الصناعات وانظمتها · فارتقت في ايامها الى عصر الاسكندر المكدوني بنحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي ·

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانيين ان الاولين اعتنوا بالفنون فارتقت في عهدهم · ولكن الرومانيين اشتغلوا بالحروب مئات قرون كان الارقاء فيها هم الصناع فلم يتقنوها بل ان الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة · ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها وانتقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولاسيما في هذه الحاضرة العريقة في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم · فاشتهر من القدماء المصريون بفن الحراثة ونسج القطن والكتان للكهنة وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الحزفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترع والتخليط وجر الاثقال وغيرها ·

وعُرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصياغة والحجارة الكريمة والتماثيل والنقش على العقار (الآجر) ·

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصبغ الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والتجارة ·

والصينيون بالخزف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به ·

والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المتقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض (زنبلكات) الساعات ·

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقتبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان · واخذ العرب

عن الصينيين الابرة المغناطيسية وعن العجم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هوميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناضد المتحركة · والحداد هيفست اله النار · ومعادن قبرس الحديدية · والحدادة · وكوب نسطور والخراطة وصبغ العاج والبرفير · وصياغة الفضة في صيداء والنجارة وعمل المركبات والصيقله والغزل والنسج الفينيقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقلمه العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور · فمن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرتها :

وجدتها بالصرح تنسج ثوبا بحواشي البرفير والارجوان
وبرأس الخياط ترسم فيه واقعات ابلت بها الفتيان

ومن ابدع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :

اودعه نقشاً به تحارُ لحسنه الانظارُ والافكارُ
فالارضُ والسماء والبحارُ منهن لاحت فوقه الآثارُ
وساطع الشمس وثم البدرُ

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً اهدي ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدع وهو :

مجنٌ حكى صانعوه السما لتقصر عنه طوال الرماح
وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح

ولو اتفسح لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب ·

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاوريهم ومحاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا باتقانها فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والاقطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

البناية وبناء القصور وعمل الاسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فنشير الى اهمه .

ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطباً لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالهم ومقراً لهم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل تفوقت بها على غيرها لاسباب كثيرة أهمها رواج سوقها واتقان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وثيقة العرى . وانحصر كثير منها في أسر خاصة كتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم وتقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعبهم بالموازين ونحو ذلك . منها كتاب (كشف الدك وايضاح الشك) لابن شهيد المغربي . و (ارخاء الستور والكلل في كشف الدكاك والحيل) لسعيد النيسابوري وهما مخطوطان . و (المختار في كشف الاسرار) للشيخ عبد الرحيم الجوبري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .

وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشد لها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزانتي وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن (هولندة) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كان للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني [1] الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه يعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهياً ومقاصاً للمخالفين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال المحبي في (خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشد والعهد لأهل الصنائع . وكان صاحب هذا المنصب قديماً يعرف (بسلطان الحرافيش) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اه .

بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الخيرية فبقي له من وظيفته التصديق على تنصيب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلموها واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . و يشارك شيخ المشايخ النقيب و ينوب عنه . والجاويش ينفذ الاوامر . وآدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ وشد الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية تقال فيها أدعية وتؤخذ عهود غريبة الاسرار كثيرة التفصيل لا يسمح المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترمها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادرات وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلهم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يضفرون الحصر وبني المجد ونحوهم .

صناعة السيوف

اتفق ذكر اليمنيين بصناعة الشفار والنصال . وكذلك الهنود فقيل سيف يماني وحسام هندي وهندواني او مهند . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت واتقنت فقيل لسيوفها المشرفية والشامية . ولما كثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والشوير ومشغرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والشفار الجوهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتخذ للشفار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والحراب والمدى وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياقلة شديدة الصلابة مرهفة الغرار كثيفة مرنة ذات فرند او جوهر بديع التلوين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبيضاء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالالياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون اسرار هذه الصناعة متفوقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يهتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة تفننهم وتجاربهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على سطحه شبه الغبار او كمذب النمل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي بروائعه ونموجاته وعدم تطرق الصدإ اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الحناوي او الحنوت . واتخذ الدمشقيون لكل نصل كتلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من كتلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحسينه عند تخضيره اي احمائه بالنار . او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاذه كان ممزوجا بمعدن آخر يسمى التيتان او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي دوما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لمعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صقلها ومرونتها ومتانة فولاذها . وكانت صناعتها مشهورة بزمن الرومانيين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضاً .

وصارت الناس تتغالى بالسيوف وبقية الاسلحة كالنصال والحراب والسهام والمدى والدروع والخود والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفاستها ورونقها وندرتها .

وقال الجواليقي في المعرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفائح بصرى اخلصتها فيونها ومطرداً من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

(Prisse d'Avennes) في كتابه الافرنسي (الفن العربي) (L'art Arabe) صفحة ٢٨٠ بما معربه :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (اي عصاه المعوج) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و٩٢١هـ مصنوعة من الفولاذ الخراساني ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اي مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشق وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن لحكومة ان لغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امنح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . . والدبوس كانت قبضته موشاة بالمخمل القرمزي وعلاقتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة الدمشقية . . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع بالذهب بالصناعة الدمشقية . . » اه

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيمورلنك (الاعرج الحديدي) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسبى كثيراً من صناعها والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبناؤون والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخر ولا سيما الصياقلة المشهورين الى سمرقند فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في مدينة فاس المراكشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسليمانية والدمشقية والخراسانية وتتميز سيوف اليمن بحفرها ونقوشها ولكنها لينة الغرار تنفلل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقلي والسكاكيني وجوهر وبولاد . وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة (٣:٥٧٧ و ٧٠٠)

ويظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقلة فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير (الاولى) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها . و (الثانية) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لاتثلم ولاتكل . ولانعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نظمه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

القى بجانب خصره امضى من الاجل المتاح
وكأنما ذر الهباء — عليه انفاس الرياح

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي :

وجرد من اغماده كل مرهف اذا ما نضته الكف كاد يسيل
جرى فوق متنيه فرند كأنما لنفس فيه القين وهو صقيل

القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشتغل بالمبرد ويعرف عند عامتنا بالبندقجي والقردحجي والقرداحي وصنعته القيانة المعروفة عندهم بالقردحة .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلمون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة (الكشته) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السنديان لتذويب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلاها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء بيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع (حوران) منذ القديم بهذه الصناعة نبت بها حوران فتفرقت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام ونقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشتغل ابناؤها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القلمون ولهم بقية في دير عطيه وبيرود وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المتقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) وبقي حدادو دير عطيه يشتغلون البنادق سراً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادنية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كان شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولهم في اعداده طرق جميلة وتفننات عديدة لامحل لتفصيلها الآن .

القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة ونقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضائر القاشاني والعامة تقول القاشي اه . وعامتنا اليوم تقول القيشاني .

وهذه الصناعة اتقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار وتناولها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فاتقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمانيون قصورهم بنقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنية اصفهان ولاسيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونيه وبورصه آثار القاشاني السلجوقية . ويتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بميناء اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة (الفضائر القاشانية) ومن الواحها المؤرخة قبرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ٦٥٩هـ (١٢٦٠ م) .

والقاشاني صنفان صنف بسيط من الخزف الممزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه بمركب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلح لصبغه بالوان شفافة رائعة تأخذ بمجامع الابصار .

ولقد كانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٧ م اذ حفر هناك الطبيب النمسوي اورديشيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي تزيل دمشق الآن اخيراً فوجدا معامل له وآثاراً منه .

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القيمرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لسحق الزجاج والتمويه به وله نوافذ لخروج الدخان عند ايقاد النار للتذويب والشي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بيعت منذ ربع قرن او اكثر وكذلك ظهرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسبر حيث الآن مشغل في الآسية بجوار الكنيسة المريمية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المخطوط انه ارخ عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا فجاء من قبله رجب آغا القبجي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطلب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) فنظمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمسوي ما يدل على ترك العمال اشغالهم فجأة وتخريب أتاتين الشي بحادث فجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارتجفت منها اعطاف دمشق مراراً في سنة ١٧٥٩ م و (١١٧٣ هـ) فهدمت مآذنها وقوضت كثيراً من ابنيتها فترك العمال اعمالهم وطمر المحل .

ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأسر خاصة فنقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة اسرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما تنافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل[1] واشباهها . ورصفت بصفائحه جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان ينتزعونها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانتقلت تلك الالواح النفيسة الى اوربة وقل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . ففقده الاموي بالحرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساجد والحمامات والبيوت آثاراً نفيسة منه اهمها مافي جامع الشيخ محي الدين بن العربي الذي جدده السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصفحة جدرانه بالواحه وقد حول الآن الى سوق . وفي التكيتين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكاريوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي سلسبيل جامع الدرويشية المؤرخ في سنة ٩٨٢هـ (١٥٧٤ م) وفي جامع سنان آغا في المناخلية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في متحف الوطن من بقاياه المختلفة الاشكال وبعضها نفيس عليه كتابات ومنها ادوات كالمرايا وغيرها . وكلها بديعة الالوان والنقوش والطراز .

ومن قرأ وصف الرحالة والمؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان نكب بالحرائق الكثيرة ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كان عليه من الرواء النادر والزخرف النفيس .

---

(١) الصهاريج البرك والبحرات في وسط الدور . والسلسبيلات هي المياه التي تحصر بانبوب للاستقاء . والباذهنجات هي انابيب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتهوية . والقماقم آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزرع الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فنسبت القطع القاشانية اليها فقيل المالقي (Mayolca) والفايسي (Faiences) واقتبسها منهم الفرنسيون وتفوقوا في معامل مدينة (روان) ثم افتنى اثرهم الالمان والانكليز .

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خزف دمشق المطلي بالميناء .

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترقم نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة . و بعد ان تجفف يذر عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلى به ممدوداً عليها بسائل غروي وتشوى في وطيس (تنور) معد لها فيذوب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مشابهة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ .

الميناء

الميناء كلمة فارسيتها (مينه) اي جوهر الزجاج وهي (أكاسيد) معدنية تصهر بمادة زجاجية وتطلى بها الاواني المعدنية والادوات لاظهار رونق نقوشها وجمال رسومها . فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالميناء أحياناً .

وصناعة الميناء عرفها الطورانيون وتفوقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفينيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون . ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي .

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشركس متفوقين فيها الى

يومنا حتى يقال (ميناء شركسية) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم .

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين . وقال المؤرخ راي : ان المسيو (بيو) وجد سنة ١٨٧٢ م انقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق .

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتهار اوربة بها . وعنها وعما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الى بلادهم واتقنوها .

الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعرب (بسيبسوس — Psipsos) او من كلمتين هما (بسيفي — Psifi) اي قطع و (ذوتو — Zoto) بمعنى مرتبطة . فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلفظ (الفسفس) . قال ايمن بن خزيم في بشر بن مروان :

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كملل تاجها بالفسفس
فسماؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلألأ في البهيم الحندس

ومنها كلمة (الفص) و (الفصوص) للقطع الصغيرة العظمية ونحوها . وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون (Azulejo) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني (فاينس) وهي ملونة ومطلية بالرونق (الفرنيش) . والخزفيون كانوا يعملونها الواحاً مطلية اسمها (Zelis) تتخذ لتغشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود [1] (اه) .

اما الافرنج فيسمونها موزاييك (Mosaïque) نسبة الى (موزه) إلهة الفنون ومنها اسمها في اللغات الاوربية .

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك (السقوف الداخلية او الطوانات) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي (١ : ٥٩٨) .

البيوت ونحوها بطبقة من الجبص (الجفصين) فتؤلف اشكالاً هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاشوريون والبابليون والفنيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فتفوقوا بها ورصفوا بها جدرانهم وارض قصورهم . واشتهر بها البزنطيون وهم الروم الذين كانوا في الآستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب توصف على طبقة من الجبص

ونقلوها الى دمشق ايام استقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اثني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل راموث او المشتري بعد نقضه وتحويله الى كنيسة ثم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بانواعها جدران الجامع وسمكه حتى كان آية في الابداع والاتقان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . مع ما انتابها من الحرائق مراراً كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تأثير حريق سنة (٤٦١ هـ ١٠٦٨ م) في الجامع فقال : « فاتى الحريق على الجامع فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جبير الكناني الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كل واصف فجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً » .

وقال الجاحظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قبليه القبة المعروفة (بقبة النسر) ليس في دمشق شيء اعلى ولا أبعى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغريبة الحسن » .

واتفق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فيرد الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حبالاً » . فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعاً من الروم الى قرطبة لتزيين مسجدها وهو من الاتقان بمكان سام . ومنها مخطط (خارتة) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسوريه وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكلس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر بيبرس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تمثل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورقوماً رائعة .

قال المسيو غوسطاف لي بون الفرنسي (Gustave le bon) في كتابه (حضارة العرب) ما معربه محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالزخارف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . (الاول) ما كانوا يرصفون به ارض الغرف واسافل الجدران الرخامية والآجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و (الثاني) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز البزنطي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اهـ .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعيض عن قطع الفسيفساء بالقاشاني المحلى بالمينا . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي (Reinaud) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في (فن الفسيفساء عند العرب) ضمنها فوائد جديرة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعيض عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة يتفنن فيها صانعوها .

الترصيع او التنزيل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسيوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نحاسها القديم واشتهرت بها دمشق · حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال ·

وصناعة الترصيع او التنزيل في نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الافرنجي (Damasquiné) والايطالي (Damaschina) الى يومنا · وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم واسلحتهم · وطريقة عملها : ان تحفر اثلام عميقة او اخاديد في المعادن ثم تحشى باسلاك ذهبية او فضية وهذا اخر انواع الترصيع وأجودها ·

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحيًا اذ يحمى المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين و يرسم الشكل المطلوب بمنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعتناء بآلة نحاسية · واما النقش فيتم بمنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعيف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فنسبت اليه وقيل لها (الصناعة الظاهرية) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليهما تاريخ سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) من هذا النوع البديع مع الاغطية المخرمة المعروفة (بكسر جفت) ومع الزجاج الذي يستصبح به وكلها من الصناعات الدمشقية المتقنة ·

ولقد وصف المسيو بريس دافن (Prisse d'Avennes) الفرنسي في كتابه (الفن العربي) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصفر اي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المغشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية · وقال : ان أمراً خاصة كانت هذه الصناعات منحصرة بها فتتقن عملها للخلفاء والسلاطين والامراء في دمشق ومصر والموصل · وكانوا يصنعون الابار يق والطسوت والاقداح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المتشابكة التي يسميها الافرنج باسم (الصناعة الدمشقية) اي دمياسكينه ··· وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد ··· ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة ·

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبية وفضية وتغشية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتلبيس » او « التغشية » عند ارباب هذه الصناعات ·

ثم قال : ولقد رحلت أسر دمشقية الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنسه وجنوى والبندقية · واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية (Sicili) · الى ان قال : ان اتخاذ تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كان للتنافس بهذه الصناعة الرائعة ··· ولكنه انتقد الكتابات المتشابكة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازها » انتهى قول دافن ·

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية مافي كاتدرائية بايو (Bayeux) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة · وعلى قبر السلطان بيبرس الثاني قنديل شبهي اي برونزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصة ذلك السلطان تذكاراً له · وفي بعض المجاميع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش ·

و بما ان هذه الصناعة تتعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعدينه من مناجم كثيرة حول دمشق · منها مدينة كلشيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جرن النحاس » · وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدنت قديماً ·

وفي دمشق سوق النحاسين المسمى قديماً (البريص) التي ربما كانت تحريف (باراذيسوس) اي الفردوس · ولعل اسم برزه منها ايضاً · وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها ·

ومما رواه المؤرخون : ان علي بن عريف النحاسين الدمشقي صنع ادوية مع

النفط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها جمرة نار وخرب بها الابراج التي صنعها الصليبيون من خشب وحديد مغشاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران. وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزراقين والنفاطين وذلك في حصار عكاء سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م).

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس. وفي متحفنا الدمشقي امثلة كثيرة منها. ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكّر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً.

نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السلجوقيون الى بلاد أخرى. ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بديعة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة. وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تتجر بالذهب وانواعه من محلول وسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزيين الجدران والاخشاب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به.

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظمية في البزورية. وغرفة حماة العظمية ايضاً. وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي بيد آل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة (خركاه) وهي لفظة فارسية بمعنى المثلثة سميت بذلك لتثليثها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال برونقها ورواثها الجميل. ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجميته واحدثها ما في موقف (محطة) السكة الحجازية في آخر شارع جمال باشا الى جنوبي المرجة الغربي.

ومما يتعلق بهذه الصناعة النجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها مما يدهن وينقش ويحصص بزخرف نفيس. ولقد اشتهر بها كثيرون فنسبوا اليها وقيل لهم بنو النجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساء الآخر.

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري الذي صنع القماري الثلاث العظيمات التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة. كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح وممن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة. وهو من سلالة المنلا محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق سنة (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) وحمل معه جواهر ومعادن فلقب بالجوهري وبقي الاسم متعاقباً في سلائله كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزانة مجمعنا العلمي الدمشقي.

ونشأ بين المسيحيين أسرة بني النجار واصلها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها النفيسة واشتهر منها وهبه النجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم الارثوذكس وله اعمال في القواطع (الايقونسطاسات) الكنسية منها قاطع كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين يأخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م. ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر ونحوها.

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة التي أهملت منذ نصف قرن. وفي متحفنا اشياء منها. ومن ذلك التغشية بصفائح الجوز الخشبية وللدمشقيين اتقنات بديعة فيه وفي نقوشه.

* * *

النسج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها ويضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقطيفة (المخمل) والديباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المدبجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدائق وكلها من الشجر الغريب الهندسة والاشتباك فسماه الايطاليون (Damasco) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم (الدمشقي) ومنه اسمه الافرنسي (Damas) والانكليزي (Damask) .

اما كلمة (ديبا) للنسج القطني المعروف فارجح انها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من (انديا) بمعنى كساء اوثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة .

وارى ان كلمة دمقس ودمقاس ودقمس التي أطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب (دمسه) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرتقاليون انها عربية الاصل (Adereçar) وهي تقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والديباج في زمن الدولة الاموية وتفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان (دار الطراز) [1] في قصره المعروف بالخضراء [2] لنسج الحرير

(١) كان (ديوان الطراز) و (صاحب الطراز) المسميان بزمن الفاطميين (دار الكسوة) و (صاحب الكسوة) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحدق به ابنية الامويين التي أدخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

المطرز ووشي الثياب الملكية المذهبة وبقيت دكاكين البزازين الى زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدان البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحاسن الرائعة .

ووصف بريس دافن الافرنسي الآنف ذكره هذه الصناعة في كتابه (الفن العربي) بما ملخصه معرباً فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روائه وبدائع زخرفه في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشاً بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كثير من مؤرخي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العنابيات اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العناياتي والحريري . وذكروا ان بني الفلاقسي في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقس من نواحي حمص اذ جاء جدهم السيد محمود منها الى محلة القيمرية ينسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعته ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الحرافشه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الامر الكثيرة تنسب الى صناعات النسج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطراز والعقاد والغزال والغزولي والقطان والحلاج والكبابة والحائك والكتاني والمنير ومسديه والخوام والطوا . وبعضها ينسب الى آلات النسج مثل النويلاتي والمكوكجي والمشاطي .

ولقد جاب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطيهم وخدمتهم واربابَ بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل الترزي والفرا والفرايه وكركو وكركجي والزناتيري والكبراتي .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضرا محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصارة واليها نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش اوالطباعة واليها نسب بنو الطباع والبصمجي .

ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل وهما شارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولاسيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق ما نصه : « وفيها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيبومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » . ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقماري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمرية .

وممن اشتهر في دمشق من الزجاجين ابو اسحق ابراهيم بن محمد النحوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ وملا صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق النحوي البغدادي نسب اليه لا الى الصناعة فقيل له (الزجاجي) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من (بني الدالي) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني (القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج) في محلة الشاغور .

البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورنثي . ثم وجد في بزنطيه الشكل البزنطي . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزنطي اشتهروا به فجاءت ابنيتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مثمنة الاضلاع ثم مربعتها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانتقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يخلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزاتهم الشكل (المقرنص) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة . واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والسور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فمنها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسماؤها واماكنها ومقاديرها لتحفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولون الصالحي في (رسالة المزة) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضريبة على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة اه . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزالق ومغامز ولهم في هندسة ابنيتهم اشكال كثيرة مختلفة [1] .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اوربة الطراز القوطي مقتبساً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون (محل الجامع الاموي الآن) بزمن الارامبين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمن الرومانيين والكنيسة المريمية بزمن اليونانيين والجامع الاموي ودور الامويين والمدارس والقلعة وبعض القصور العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غنائم المهندس على باب الـ وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار (رنك) خاص مثل (صور

(١) بين المسيو غايه في كتابه (صناعات العرب) اختلاف هذه الا دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

لملك الظاهر بيبرس البندقداري . وزهرة الزنبق بن اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها . والآخر ذهب بذهاب المباني منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالتخريب والاحراق والزلازل والاهمال .

وكان تحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والرواء في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون بحت الحجارة ونقشها وتصويرها ولهم سوق تدعى (سوق النحاتين) الى عهدنا .

ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكيتين السليمية والسليمانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة . وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد . والقاعة النجكية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزانة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد النجكي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق .

وفي الصالحية (بسفح جبل قاسيون) في باب السوق المواجهة لجامع الشابتية محلة (بين المدارس) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق واتقان وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن . وقبة مجصصة بنقوش رائعة . واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات مجصصة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثمينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة (٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م) . وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة (في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م) وحرضنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون مباءة للسياح ورواد الآثار . ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الراز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق . قال الشيخ احمد البديري الحلاق في تاريخه المخطوط ما محصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم . فأرسل خلف المعاصرية (اي البنائين) الذين عمروا السرايا وكانوا نصارى وكان معلم نصراني يقال له ابن سياج فأمر القبجي اي المحصل بتعذيبهم ... الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين . وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزانة مجمعنا : ان بانيه انفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساتينه وارزاقه . وبقي العمال يشتغلون في دار الحريم سنتين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنيتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبيين الذين استقدموا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين اياهم بفن الهندسة البنائية ... وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لآخر فنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندي وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة (بخان العظم) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضاً فاعة في زقاق الفخر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في السمك والجدران من نوع (الخركاه) اي المثلثة واصلها لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الى كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها رمم فقد طرازه . وعندنا اسر باسم البنّاء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الاقنية الحلوة والمالحة الى الطوالع (اي محل توزيع مياه القنوات) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات (خارتات) لمعرفتها وتوزيعها واصلاحها . ولقد ذكر التاج السبكي في كتابه (معيد النعم) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً اسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنياطي (واراها تحريف القناياتي) والشاوي .

* * *

الوراقة وما يتعلق بها

ان صناعة الورق تناولها العرب عن الفرس كما يظهر من اسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها اولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وانشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الاندلس واوربه . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق ويصقلونه بصاقل من العاج ويقطعونه اذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الاحمر والاسود والصفدعي وهو اكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالاصفر الزعفراني . ويبرون الاقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة اهمها النسخي وهو المعروف عند النصارى بالكنسي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها باتقان ويبيعونها . فالوراقون هم الكتبيون اليوم . ولهم بهذه الصناعة اعمال بديعة تدل على حسن ذوق ودقة تفنن وكثير من اعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية .

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن (نظم تدبير التسفير) في صناعة الكتب اي تجليدها و (عمدة الكتاب) في صنعة الحبر والاقلام والخط للامير المعزّ بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و (رسالة في صناعة الاحبار) و (النجوم الشارقات في عمل الليقات) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و (رسالة في الخط وبري الاقلام) لابن الصائغ و (الاقلام القديمة) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً اي نوعاً من الخط و (شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب) في صناعة الخط و (مقدمة في صناعة الخط) لابي علي بن مقلة مخرومة الآخر و (ارجوزة لمحمد بن حسن السنجاري) في الخط ايضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها (تنويق النطافة في علم الوراقة) لابن مسك السخاوي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم (كرتاداماسينا Carta Damascena) وانتقلت صناعته الى شاطبة وبلنسية وطليطلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد في دمشق .

وكان اسرى الصليبيين يؤتى بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م : ان جد الجنرال غوابه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسه في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وتفنن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالحي مؤرخ دمشق في رسالته في (المزه) ما نصه : «وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراقة كانت حول الجامع الكبير .

ولقد اشتهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المتفننين ووراقيها البارعين ولن تزال آثار الوراقة عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاستانة ومصر .

وممن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كتب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندي مصحف مسبع كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني .

وممن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتي نسخة من المقامات الحريرية بديعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ (١٧٣٥ م) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب (تذكرة داود البصير) نسخه ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ٨٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولهم مخطوطات بديعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

الصناعات الأُخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزئ بالاشارة اليها :

منها (السباق والفروسية والمراحة والمسايفه) = اشتهرت هذه الالعاب منذ القديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مربطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق (الزائد) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة ويجيزون السابق ولا سيما في زمن الخليفة معاوية ابن ابي سفيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وقي الانسان لم يخش حادثاً ... وان قيل هجام على الحرب اهوج
وان بلغ المقدار لم يخ سابح ... ولو انه في كبة[1] الخيل اعوج[2]
فلا تشهرن سيفاً لتطلب دولة ... فافضل ما نلت اليسير المروج

واشتهروا بترويض الخيول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعها السراج والعامة تقول السروجي والدكديجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك التمرن بفنون الحرب والمسايفة (اللعب بالسيف) والمراحة (اللعب بالرمح) والمثاقفة (لعب الحكم) . ومما يحضرني من ذلك ما رواه الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر الدمشقي بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية الكحلة لانها سلاح ممالیك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس (خيط السباق) للجري او للحملة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطهّم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلوكباشي الجركسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير ملء كفه دراهم » اه .

وقال احمد البديري الحلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاغوات والشربجية والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعان العرب بملاعبهم وحركاتهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالحي مثل هذه التمارين والالعاب مفصلاً في الجري على الخيل ورمي النشاب من على ظهورها وما اشبه ذلك[1] . والاوجاقي من يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة عند العرب .

ومنها (عمل الآلات الفلكية) = مثل المزاول اي الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبنكاماتها وبقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها عصافير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة ثم تجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال (باب الساعات) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب جيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مهذب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان فخر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة (كتاب علم الساعات والعمل بها) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الخراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ٢ : ١٤٩ » .

ومنها (صك النقود) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساكر ان رجلاً اسمه دواس رثى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر صك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٧ هـ بطلت الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رمليا بمصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الذين زيفوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد صكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما صك باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها (الغناء والموسيقى والضرب على الآلات) = لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتبي في (فوات الوفيات) من ان ابن المسجف الدمشقي قال يصف (الكمال) وضربه على القانون :

لو انت أبصرت الكمال وجه ... أوتار قانون له في المجلس

لرأيت مفتاح السرور بكفه ... اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له (سالم) وله عبد اسمه (سرور) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنغمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يخلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها (استقطار العطور) = وهي صناعة قديمة لكثرة مافي دمشق وغوطتها من الرياحين والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي [1] : طرق استقطارها في قرية (المزة) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر (الكركات) والانابيق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستقطار بها في عصره اي القرن

(١) راجع (نخبة الدهر) طبع اوربة صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . ومما قاله عنها : « ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر . ومما ارخوه : انه كان لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى (شور الزهر) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً بائتين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثله » اه .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر اوالزهوراتي والعطري اما بائع العطور والمتجر بها فيسمى العطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات أخر كادارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والدباغة وعمل الادوات والحلويات ... الخ مما يملأ مجلدات فاجتزأت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسماء أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبرّاك والحمامي والمدرس والمعلم والجرائحي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والدباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل أحرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

الختام

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيتم في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدن الاخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعها الى بلاد أخرى وسبي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الاسر في النكبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكتم اسرارها بين عمال معروفين

غير متجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب القراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتقائها .

فسبحان من يبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة في استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .

وارجئ ذلك البحث الى محاضرة ثانية في (صناعات دمشق الحديثة) ألقيها عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها . ولاسيما الشد الذي هو من أهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى اسكندر المعلوف